الفصل الثاني

الاقتباس من الآخر بين
فقدان الأصالة وتأصيل الهوية

د.إبراهيم رشاد محمد صبري(*)

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن والاه..

وبعد،،،

فإن مسألة الاقتباس من الآخر تحتاج إلى وعي تام، وبصيرة ناقدة، وإن الإنسان ليشعر بالحزن حين يرى المسلمين يأخذون ـ بنهم ـ من الآخر دون وضع ضوابط محددة للاستفادة، وتقويم لهذا المقتبس.

لهذا أحببت أن أكتب هذه السطور، وقد تناولت العناصر التالية فيه، لتحديد الموضوع وحصره: "**تعريف الاقتباس**".

الاقتباس بين الماضي والحاضر، ويتناول:

١ـ سمات الاقتباس عند المسلمين الأوائل.

٢ـ طبيعة الاقتباس في العصر الحاضر وحدوده.

٣ـ الإسلام والاقتباس.

٤ـ ضوابط المُقتَبِس وشروط المُقتبِس.

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد ورئيس قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب ـ جامعة جنوب الوادي.

obeikandl.com

تعريف الاقتباس:

الاقتباس في اللغة: يعني الأخذ، وعند اقتران الاقتباس بالعلم فإنه يعني الاستفادة، "اقتبست منه علماً" : أي استفادته، وفي حديث العرباض : "أتيناك زائرين ومقتبسين، أي طالبي علم"[1]، وفي الحديث أيضاً : "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر"[2]. والمعنى اللغوي يفيد مطلق الأخذ، سواء أكان نافعاً أم ضاراً.

وأما المعنى الاصطلاحي، فيمكن تحديده بما يلي : "أخذ الأمة العلوم والأفكار والمبادئ والعادات والتقاليد عن غيرها من الأمم"[3].

الاقتباس بين الماضي والحاضر:

أولاً: سمات الاقتباس عند المسلمين الأوائل:

إن اقتباس الأجيال الأولى من الأمة الإسلامية عن الإغريق والرومان والفرس كان اقتباس ما لزمهم سواء في المجال العلمي أو المجال المادي والتنظيمي، حتى صارت لهم حاستهم الخاصة التي استغنوا بها عن النقل، ثم أصبحوا فيما بعد أساتذة في جميع الميادين، وصارت أوروبا تتتلمذ عليهم.

لقد كانوا يأخذون ما يأخذون وهم في موقف العزة والاستعلاء ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٩)، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون : ٨). كان ملء نفوسهم الاستعلاء بالإيمان والاعتزاز به، فلم يشعروا – وهم ينقلون عن الآخر – أنهم أقل منهم، ولم يشعروا بالضآلة أمامهم أو بالذلة لهم، لأنهم في حاجة إليهم، بل شعروا أنهم هم الأعلون وإن كانوا في حاجة إلى غيرهم، لأنهم مؤمنون. ومن أجل ذلك لم يفتنوا ولم ينبهروا بما عند الآخر، فأخذوا ما رأوا نافعاً لهم، ولم يأخذوا ما رأوه مخالفاً لدينهم وعقيدتهم.

---

(١) لسان العرب ـ لابن منظور ـ مادة (قبس) ـ دار صادر ـ ج٢ ص ١٦٧.
(٢) مسند الإمام أحمد ـ ج٤ ص١٢٧، ومسند الدارمي ـ كتاب الطب ٢٢/ ٥١.
(٣) مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ الكويت ـ العدد (٢٩) ـ ص ١٢٣.

obeikandl.com

لذلك لا نعجب إذا رأينا المسلمين الأوائل رغم تمكنهم من الإغريقية إلى الحد الذي ترجموا به كثيراً من مؤلفاتهم، لم يترجموا الأساطير الإغريقية، ولم يعنوا بها أي عناية.

كذلك كان شأنهم في الجانب المادي والتنظيمي، أخذوا ما وجدوا أنفسهم في حاجة إليه، دون أن يأخذوا ما كان مشتبكاً به عند أصحابه من شرك وخرافة وانحراف في الأفكار أو انحراف في السلوك. وكان الذي أخذوه – وكله في مجال الأسس والمناهج – قد طوعوه سريعاً لمنهجهم الخاص في الحياة فأصبحوا أصلاء فيه لا مقلدين[1].

إن الأصالة أمر له أهميته البالغة في وقت النقل عن الآخر بصفة خاصة. فالأصالة لا تمنع الاستفادة من ثمار العلم وثمار الحضارة المادية ـ التي هي في النهاية جهد بشري مشترك تداولته الأمم وتتداوله الأجيال ـ ولكنها تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل.

وأوثق أسباب الأصالة أن يكون الإنسان صاحب عقيدة وصاحب منهج خاص في الحياة.

وخلاصة القول أن اقتباس المسلمين الأوائل من الآخر قام على قاعدتين مهمتين:

الأولى: أن الأمة لم تشعر بالصغار والانكسار، وهي تأخذ ما هي محتاجة إليه من حضارة الآخر، بل كانت تحس بالاستعلاء، الناشئ من الإيمان. فهم يشترون هذه البضاعة الحضارية ممن يملكها، دون أي خضوع روحي له.

الثانية: أن الأمة ـ في حركة الأخذ هذه ـ لم تأخذ إ لا ما كانت في حاجة إليه، وأنها حين أخذت تلك التنظيمات والأشكال المادية، لم تأخذ معها قط المبادئ والنظم التي كانت لاصقة بها عند الآخر. فقد كانت تلك المبادئ والنظم قائمة على عقائد وتصورات لا تصلح لهم، وليس المسلمون في حاجة إليها، لأن دينهم فيه الغناء عنها.

ثانياً: طبيعة الاقتباس في العصر الحاضر وحدوده:

فاجأت صحوة أوروبا الهائلة المسلمين وهم في غفلة من أمرهم، وبعد عن دينهم، وجاءهم الاحتلال، ومن بين يديه حضارة أخاذة وفاتنة، وقد كان المسلمون في فترة ركود

(١) راجع: واقعنا المعاصر ـ محمد قطب ـ دار الشروق ـ ص ١٠٥.

حضاري وجمود اجتماعي سببه التفريط في تطبيق دينهم تطبيقاً صحيحاً، ولذلك كانوا هم الطرف الضعيف في هذا الصدام. وتبعاً لذلك كانت لديهم قابلية شديدة للتأثر وتشرُّب الأنماط الوافدة، خاصة ذات البريق الاجتماعي.

ومن هنا بدأت دورة الاقتباس والنقل عن الآخر، والانكباب على أشكال حياتهم وأساليبها المظهرية، من غير تمييز أو تحديد، بل أخذت عن الآخر كل ما وجدته، ولم تراع مدى موافقته لتعاليم الإسلام وعقيدته، لأنها فقدت عزتها واستعلاءها بابتعادها عن دينها.

وبداهة لم تكن عوائد الآخر شراً كلها، ولكن قانون الاجتماع البشري، وطبائع الأشياء تقضي بأن الاقتباس هنا لا يكون إلا في قشور الأشياء، وليس في لباب الحضارة، وقد سجل المؤرخون وعلماء الاجتماع هذه الظاهرة، ومنهم ابن خلدون في مقدمته إذ أشار إلى " أن المغلوب مولع أبداً بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم (الجلالقة) فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء. والأمر لله "[1].

فما قاله ابن خلدون في مقدمته ينطبق تماماً على معظم بلاد المسلمين في ذلك الوقت، لقد تخلفت العقيدة وتوارت تحت الركام ؛ لأن الإسلام لم يعد محور ارتكاز "المسلم المعاصر" ، ولم يعد له كيانه المتميز، المستمد من العقيدة الصحيحة، ومن تطبيق منهج الله.

مع إن الإسلام يحتوي على حيوية خالدة، وقوة دافعة، وإمكانات واسعة تعمل على تكوين عالم جديد، ومجتمع صالح، تراعي فيه جوانب المادة والروح، كما يعيب التقليد، ويذم تعطيل العقل.

الإسلام والاقتباس:

لاشك أن أعظم نعمة أنعمها الله تعالى على الناس: بعثة رسول الله ﷺ، ونزول القرآن

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص ١٤٧.

الكريم عليه، وبيانه ـ ﷺ ـ له بسنته، فانتظمت الشريعة الخاتمة أمور الدين والدنيا بأكمل وأدق نظام يكفل سعادة البشر في حياتهم الدنيا وآخرتهم.

ولا يدرك ذلك إلا من أنعم الله عليه بنعمة العلم الصحيح المنبثق عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والمسلم المعاصر يقف أمام مكتبة أجنبية ضخمة: هي نتاج العقول المفكرة على مختلف العصور، فلو انغمر المسلم وسط هذا الركام قبل أن ينال قسطاً وافراً من ثقافة الكتاب والسنة، فإن عقله يمتلئ بها، وذهنه يزدحم، ويصعب عليه تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والغث من السمين.

ومن أجل تجنيب المسلمين هذه الأخطار، لابد من تمهيد الطريق أمامهم، وذلك بإنارة أبصارهم بالثقافة الإسلامية المعتمدة على الكتاب والسنة أولاً، قبل أن يسقط أثير ثقافة الآخر، فيصعب تخليصه منها.

وبناء على ما تقدم، فإن مسألة الاقتباس، لابد عند بحثها من مراعاة الأمور التالية:

الإسلام دين متميز، يجمع بين العقيدة والفكر في وحدة لا تنفصل، فهو يعتمد على الوحي والنبوة أساساً، ثم يكون العقل وسيلة من وسائله، والعلم منهجاً يجري في مجراه.

إن الأمة الإسلامية هي خير الأمم، ومركزها مركز القيادة والتوجيه، فهي صاحبة الدعوة الخاتمة التي تسيطر على مواقف البشرية وتصرفاتها. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب، وفي صف التلاميذ، ولا يجوز أن تعيش على فتات الأمم الأخرى، وتنخرط في صفها، وتعطل أعظم نعمة أنعمها الله عليها.

في مجال الاقتباس: الأمة الإسلامية لها موقف متميز، تأخذ إذا اضطرت واحتاجت ـ بإرادة واختيار ـ ما يوافق دينها، ويلائم شخصيتها، ولا يؤثر عليها، وتنبذ ما لا يلائمها، أو يضعف شخصيتها، أو يفقدها امتيازها.

للأمة الإسلامية استقلاليتها: فهي لا تتشبه بالأمم الأخرى في شعاراتها وشاراتها، لقول النبي ﷺ: "من تشبه بقوم فهو منهم"[1].

(١) رواه أحمد في مسنده ـ ج٢ ص ٥٠.

يراعي الفرق الظاهر بين الإسلام وحضارات الأمم الأخرى، فالإسلام يرتكز على العقيدة والإيمان الصحيح بالله وباليوم الآخر، ويرتكز على الجانب الخلقي والروحي من الحياة، بخلاف الأمم الأخرى، فحضارتها على النقيض من ذلك.

الإسلام يتسم بالمرونة والصلابة، فهو يملك نعومة الحرير، وصلابة الحديد، نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق، وصلابة الحديد وثبات الجبال في حدود العقيدة والأخلاق.

ومما تقدم يظهر لنا: أن الإسلام يقبل الاقتباس للعلوم النافعة، والنظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين. فالنبي ﷺ يقول: " الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها فهو أحق بها "[1]، كما أن اكتساب الأفكار العلمية من الأمم لا يسمى تقليداً، " لأن العلم ليس حكراً على أحد، والاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العَقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله، كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له سلفه، سواء أكان من بني أمته أم من أبناء أمة غيرها. وعمليات الإصلاح تستمر وتنتقل من إنسان إلى إنسان، ومن عصر إلى عصر "[2].

ضوابط المُقتَبَس وشروط المُقتبِس:

أولاً: ضوابط المُقتَبَس وشروطه:

أن يكون المُقتَبَس من العلوم النافعة، والنظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين، وتتمشى مع تعاليم الإسلام وعقيدته، وأن يساهم المُقتَبَس بشكل فعّال ومباشر في تحقيق الأمة وخدمة مصالحها، وأن يكون مراعياً لخصوصيتها، من حيث طبيعتها، وبيئتها الإسلامية، وأن يراعي فيه النوع، لا الكم[3].

أن تكون الأمة في حاجة ضرورية لهذا الاقتباس، مع عدم توفر البديل له ضمن إمكانات الأمة[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب الحكمة ـ ح (٤١٦٩).
(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ـ أبو الحسن الندوي ـ دار القلم ـ ص ٢٠٠.
(٣) التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد ـ فاروق السامرائي ـ ص ٦١٧.
(٤) واقعنا المعاصر ـ ص ١٠٥.

تحري الدقة في الاقتباس، والتمحيص الدقيق للمُقْتَبَس، من أجل تمييز الخبيث من الطيب، ثم تحكيم موازين الشريعة فيه، لبيان صلاحيته، فإن كان كذلك أُدخل إلى مرحلة التمحيص الثانية (المعالجة)، وإلا فيرد[1].

إعادة المقُتَبَس إلى أصوله الإسلامية، إن كان له أصل في الإسلام، وتحكيمها فيه، وتقويم انحرافاته من خلالها، وتخليصه من شوائبه، ثم بعد ذلك يتم اقتباسه وإدخاله إلى المجتمع الإسلامي، والاستفادة منه، أي بمعنى أسلمة المقُتَبَس أولاً، ثم بعد ذلك يكون الاقتباس[2].

مراعاة عملية التدرج في الاقتباس، فيقدم الأهم على المهم، ولا يؤخذ المهم إلا بعد الفراغ من الأهم، تمشياً مع قاعدة الضرورة.

مراجعة العناصر التي سبق تحديدها للاقتباس، بين حين وآخر، بغية تقليصها أو الاستغناء عن بعضها، فقد يكون عامل الزمن سبباً في استغناء الأمة عن بعضها، فما احتجناه بالأمس ليس شرطاً أن يكون في إطار حاجة اليوم[3].

ثانياً: شروط المقُتَبِس:

لقد شرّف الله الإنسان بخلافته في هذا العالم الأرضي، وكان مما شرفه الله به (المعرفة). ولقد حبا الله بني آدم نعمة السمع والبصر والفؤاد، ولهذا السبب وحده استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في الأرض، وأن تهيئ له أسباب السيطرة على كافة المخلوقات، فينفع نفسه وينتفع به غيره.

فالسمع يشمل: إحراز المعرفة التي اكتسبها الآخرون.

والبصر يشمل: تنميتها بما يضاف إليها من ثمرات الملاحظة والبحث.

والفؤاد معناه: تنقيتها من أدرانها وأوشابها، ثم استخلاص النتائج منها، وإذا

(١) جوانب من الواقع التربوي المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية ـ منى عبد الله حسن داود ـ رسالة ماجستير، اليرموك ـ ص ٦٥.
(٢) التراث والمعاصرة ـ أكرم ضياء العمري ـ ص ٦٨.
(٣) جوانب من الواقع التربوي المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية ـ ص ٦٦.

تضافرت هذه القوى الثلاث نجمت عنها معرفة يستطيع الإنسان بواسطتها الانتفاع من غيره، ومن هنا فإنه لابد من توافر شروط في المقُتَبِس أهمها:

توافر الشعور الديني الصحيح القوي، الذي يوجه الإنسان في المجتمع الإسلامي، مع توافر الثقافة الإسلامية اللازمة له، ليكون أهلاً للتمييز بين الغث والسمين، والنافع والضار، بمعنى أن يكون ذا بصيرة إيمانية وبصيرة علمية في مجال العلم الذي يريد الاقتباس منه.

أن يكون المقُتَبِس معتدلاً ومستقيماً في سلوكه وتصرفاته وعلمه، فلا يغلب عليه هواه، وأن يكون سائراً مع شريعة الإسلام، فلا تؤثر فيه الحضارة الغربية، ولا ينبهر بها، مهما بلغ شأوها في التقدم العلمي والتقني، لأن ذلك عائقاً أمام حرية الانتقاء وجودته.

أن يكون المقُتَبِس صاحب عزة واستعلاء يدفع عنه الشعور بالمهانة والذلة بسبب الحاجة إلى ما عند الآخرين متشبثاً بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨)، وبقوله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ (البقرة: ١٢٠).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ،

مصادر البحث

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ التراث والمعاصرة ـ أكرم ضياء العمري ـ كتاب الأمة ، قطر ـ عدد (١٠) ـ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ الكويت ـ العدد (٢٩) .

٣ـ التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد ـ فاروق السامرائي ـ رسالة دكتوراه .

٤ـ جوانب من الواقع التربوي المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية ـ منى عبد الله حسن داود ـ رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك .

٥ـ سنن ابن ماجه ـ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ، بيروت .

٦ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ـ أبو الحسن الندوي ـ دار القلم ، الكويت .

٧ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار صادر ، بيروت .

٨ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق : أحمد شاكر وآخرون ـ دار الحديث ، القاهرة .

٩ـ مسند الدارمي ، دار المعرفة ، بيروت .

١٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ دار القلم ، بيروت ـ لبنان .

١١ـ واقعنا المعاصر ـ محمد قطب ـ دار الشروق ، القاهرة .

obeikandl.com